المحاضرة الثامنة: الرسائل الديوانية والإخوانية في المشرق والأندلس والمغرب. تعريف الرسالة :

لغة:

اشتق لفظ رسالة من مادة (رَسَلَ)، التي تدل على معانٍ حسية كثيرة، منها : القطيع من كل شئ، القطيع من الأنعام، القطيع من الإبل والغنم، الإبل المتتابعة قطيعا بعد قطيع [1]

ثم اسْتُعْمِل مفهوم الرسالة استعمالا معنويًّا ليدل على التوجيه والانبساط والتأنّي ، والاسم منه الرِّسَالة، والرَّسالة، ثم أصبح يدل على كل كلام يُراسَل به من بعيد :

- « رَاسَلَهُ فِي كَذَا، وَبَيْنَهُمَا مُكَاتَبَاتٍ وَمُرَاسَلَاتٍ، وَتَرَاسَلُوا، وَأَرْسَلْتُهُ بِرِسَالَةٍ وَبِرَسُولٍ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيه أَنِ افْعَلْ كَذَا، وَأَرْسَلَ اللهُ فِي الأُمَمِ رُسُلاً، وَأَرْسَلَ الفَحْلَ فِي الإِبِلِ، وَأَرْسَلَ كَلْبَهُ وَصَقْرَهُ عَلَى الصَّيْدِ » [2]
- « الرِّسْلُ بِالْكَسْرِ: الْهِينَةُ وَالتَّأَنِّي. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ افْعَلْ كَذَا وَكَذَا عَلَى رِسْلِكَ بِالْكَسْرِ: أَيِ اتَّئِدْ فِيهِ » [3]
- « الاسْتِرْسَال إِلى الإِنسان كَالاِسْتِئْنَاسِ والطمأْنينة، يُقَالُ: غَبْنُ المُسْتَرسِل إِليك رِباً، واستَرْسَلَ إِليه أَي انْبَسَطَ واستأْنس ... والإِرْسَال: التَّوْجِيهُ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِليه، وَالِاسْمُ الرِّسَالَة والرِّسَالَة والرَّسُول » [4]

وتدخل الرسائل ضمن فن بليغ من النثر؛ وهو الكتابة، « الذي أداته القلم وعماده التجويد والتهذيب، واصطناع الصور الأدبية الرائعة، التي تحدث في النفس ارتياحا وإعجابا، وتبعث فيها نشوة وهزة » [5].

اصطلاحا:

عرَّفها بعضهم بقوله :« هو فنٌّ قائم على خطاب يوجهه شخص إلى شخص آخر، أو يوجهه مقام رسمي إلى مقام رسمي آخر » [6]

وقيل بأنها : « القطعة النثرية، التي يدبّجها الكاتب في نسق فني جميل، في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر » [7] .

وقد بلغ من أهمية الرسالة في عصورها الذهبية أن أصبحت - كما يقول القلقشندي - : « لا تلتفت الملوك إلا إليها. ولا تعوّل في المهمات إلا عليها. يعظّمون أصحابها ويقرّبون كتّابها. فحليفها أبدا خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل والتكريم » [8]

أنواع الرسائل :

الرسالة تتنوع بحسب مضمونها والهدف منها، ويمكن حصرها في ما يأتي :

1/ **الرسائل الإخوانية (الأهلية) :** هي « التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض، في تهنية أو تعزية أو شكر أو شفاعة أو عتاب وما إلى ذلك، وهي أوسع ميدانا، وأكثر افتتانا، وأعذب بيانا، وأعلى منزلة، وأسمى قدرا، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته، وأخلاق الناس ومنازعهم » [9]ويدخل فيها رسائل الودّ، ورسائل الشوق والحث على التزوار، ورسائل المديح؛ والتي يندرج ضمنها (مدح بذل المعروف، مدرح الأرومة، مدح البيان، امتداح

---

[1] - يُنظر: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 720، مادة [رَسَلَ]. أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، ج12، مصدر سبق ذكره، ص 272، مادة [رَسَلَ]، أبو نصر الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج04، مصدر سبق ذكره، ص 1709. مادة [رَسَلَ].

[2] - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، أساس البلاغة، ج01، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ص 353، مادة [رسل].

[3] - مجد الدين أبو السعادات بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج02، تح : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، لبنان، 1987، ص 222.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج 11، مصدر سبق ذكره، ص 283، مادة [رَسَلَ].

[5] - محمد عبد المنعم خفاجي، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل ، بيروت، لبنان، ط01، 1992، ص 305.

[6] - حسين غالب، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، لبنان، بيروت، ط01، 1971، ص 181.

[7] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط01، 1989، ص 83.

[8] - أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج01، مرجع سبق ذكره، ص 30.

[9] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مرجع سبق ذكره، ص 306.

حقوق الملكية محاضرات حضرية للأستاذ الدكتور طارق زيتلي

سياسة الرعية، امتداح السمات الخلْقية والخُلقية)، المشاركة الوجدانية (التعزية والتهنئة)، الشفاعات، العتاب، الاعتذار والاستعطاف، الهجاء، وقد وصل بها القلقشندي إلى سبعة عشر نوعا، وهي تسمى : الرسائل الإخوانية الذاتية، وهناك نوع آخر يسمى : الرسائل الإخوانية شبه الرسمية؛ « وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب، أي أنها تلك الرسائل التي يتبادلها الأمير أو الوزير مع من هم دونه في المرتبة الاجتماعي في أمور خاصة » [1]

وفي هذا النوع من الرسائل بنوعيها نجد من التأنق والاشتغال على الجانب الشكلي الشيء الكثير، يقول عنها أحمد بدوي : « إن الرسائل الإخوانية شعر غنائي منثور، يجد فيها كاتبها متنفسا حرًّا عن عواطفه، لا يقيده فيها وزن ولا قافية؛ وهي من أقرب فنون النثر إلى الشعر، وهي تعبير عن عاطفة شخصية » [2]

نموذج من الرسائل الإخوانية المشرقية :

كتب عبد الحميد الكاتب ♥ عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك يعزّيه امرأة من نسائه رسالة من جملتها: « إنّ خير نعم الله على خلفائه ما رزقهم الشكر عليه، وكلّ ما اختار الله لخليفته من أمر وهبه له أو قبضه منه خير له؛ والدنيا دار متاع وبلغة، وما فيها عواريّ بين أهلها، ثم منقول عنهم سروره إن كان سارا أو مكروهه إن كان لهم ضارا. إنّ الله أمتع أمير المؤمنين من مؤنسته وقرينته متاعا بمدة إلى أجل مسمّى، فلما تمّت مواهب الله وعاريته قبض إليه العارية وليّها، وكان أحقّ بها، ثم أعطى عليها أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأكفى في العوض، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. احتسب مصيبتك يا أمير المؤمنين على الله فإنه وليّك فيها وفي كلّ أمر إذا تصفّحت عواقب قضائه أسهلت بك عوائد خياره إلى المنجيات من المخاوف، والدرك للفوز من المطلب، والحرز من ظلم المهالك؛ والله وليّك فيما اختار لك وقضى عليك. إن تكن يا أمير المؤمنين أرضيت الله في شكرك إياه على الهبة وصبرك على الرزيّة، فإنّ مواهب الله لك أجزل، وثواب الله لك أفضل. فامض على رويّتك في الخير فان ما عند الله لا يبلغه كتاب، ولا يحصيه حساب، وتاليات المزايد مقرونات بشكر العباد، بضمان أوفى واعد وأكرم مُثيب » [3]

نموذج من الرسائل الإخوانية الأندلسية والمغربية :

لقد انتشرت كتابة الرسائل الإخوانية في الأندلس والمغرب، والملاحظ أن كثيرا من الشعراء كانوا كتَّابا للرسائل كذلك، من أمثال : ابن زيدون، وابن شهيد، وابن برد الأصغر، وابن القصيرة، وابن أبي الخصال وغيرهم.

وقد تنوعت هذه الرسائل بين عديد الأغراض؛ من مديح وعتاب واعتذارٍ، وتهنئة وتعزية وشكوى وهجاء ...

وفيما يلي نورد نموذجاً لرسالة عتاب بعث بها ابن برد الأصغر إلى صديقه يقول فيها : « أظلم لي جو صفائك، وتوعرت علي أرض إخائك، وأراك جلد الضمير على العتاب، غير ناقع الغلة من الجفاء. فليت شعري ما الذي أقسى مهجة ذلك الود !!، وأذوى زهرة ذلك العهد - عهدي بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومودتنا تسمو عن صفة العتاب ونسبة الجفاء؛ واليوم هي آنس بذلك من الرضيع بالثدي، والخليع بالكأس. وهذه ثغرة إن لم تحرسها المراجعة، وتذكر فيها عيون الاستبصار، توجهت منها الحيل على هدم ما بنيناه، ونقض ما اقتنيناه، وتلك ناعية الصفاء، والصارخة بموت الإخاء ... » [4]

ومن رسائل الهجاء والانتقاص ما قاله ابن شرف القيرواني في حق أحد الكتاب؛ حيث يعريه ويفضحه بجهله، وعدم معرفته بآلة الكتابة والعلم، وعجزه عن الوصول إلى مقامات الكتاب البارزين، فيقول فيه : «كاتب ما عرف قط، كيف البرية والقطُّ ♥، ولا نسخ قط سطراً، إلا مسخ منه شطراً. ألفاظه ملحونة، ومعانيه ملقونة، ومقاصده خفية مكنونة، وحروفه مطمونة... ألفاته سجود، ولاماته رقود، وميماته عقد لا عقود، وقافاته واوات، ونوناته راءات. يرفع بالنواصب، ويكثر النقط الكواذب، ويعمي عين المعنى الجليّ، ويخاطب العدو مخاطبة الوليّ. وتقر كتبه بما فيها من الفساد، بأنه قرة عيون الأعداء والحساد » [5]

---

[1] - المرجع نفسه، ص 279.

[2] - أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص580.

♥- عبد الحميد بن يحي بن سعد الملقب بـ : الكاتب : مولى (يعني غير عربي) بني عامر بن غالب، اختلف في أصله،ة فمنهم من جعله فارسيا، ومنهم من جعله أنباريا، أشهر كاتب في زمانه، وله أثر بالغ فيمن جاء بعده، حتى قيل عنه : ((بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد))، وقيل عنه: ((كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماما))، اشتغل في بداية شبابه بتعليم الصبيان، ثم ما لبث أن أصبح كاتبا لمروان بن محمد – آخر خلفاء بني أمية – قبل توليه الخلافة وبعدها، ترك تراثا ضخما من الرسائل، إلا أنه قد ضاع معظمه، ما استطاع إحسان عباس جمع من تراثه لم يجاوز ستين نصا بين رسالة أو أقوال أو حكمٍ.

[3] - بهاء الدين البغدادي، التذكرة الحمدونية، ج04 دار صادر، بيروت ، لبنان، ط01، 1417 هـ ، ص283، 284.

[4] - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج01، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط01، 1981، ص 501.

♥- القطُّ : القطع .

[5] - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج07، مصدر سبق ذكره، ص 192.

2/ الرسائل الديوانية أو الرسمية أو السلطانية :

وهي التي « تصدر من ديوان الرسائل بنوعيه (الخاتم والتوقيع)، في شأن من شؤون الدولة، وكانت الكتابة في هذا الديوان، بخلافها في الدواوين الأخرى الكثيرة، إذ كانت تعتمد على التأنق في الأسلوب والجمال في العبارة، والبراعة في إظهار المعنى، بصورة واضحة بليغة » [1]

إذن فالرسائل الديوانية أو ما تسمى بالإنشائية؛ كانت تتناول كل ما يخص السياسة، وتصريف أمور الملك والدولة والخلافة، وما يتصل بهما من تنصيب الولاة والقادة والقضاة والدعوة إلى الطاعة والحث على الجهاد وأخذ البيعة وغيرها، وتدخل فيها العهود والمواثيق والمناشير، وهنا لابد الإشارة إلى ان كثيرا من الدارسين في تعيينه للرسالة الديوانية لا ينظر إلى صاحبها وكاتبها، بقدر ما ينظر إلى مضمونها المرتبط بغرض من أغراض تسيير الدولة، وتنظيم شؤونها.

ويعرف علي بن محمد فن الترسل الديواني بأنه : «كل إنشاء ذي طابع رسمي يصدر عن إحدى ((مصالح)) الدولة المركزية، أو عن تمثيلياتها وامتداداتها المختلفة في مستوى النواحي والجهات، ويقصد به تبليغ المعلومات، أو ضبط علاقات الحكم بالأطراف المتعاملة معه داخل الحدود وخارجها، وذلك بقطع النظر عن طبيعة الأشكال التي يكتسيها ذلك الإنشاء وصيغه الفنية، وأساليبه التعبيرية » [2]

ولا يتصدر كاتبٌ في ديوان الرسائل إلا من اشتهر بالعلم والحذق والأدب وحسن التصرف والسياسة والذكاء، فضلا عن البراعة في الكتابة وجمال الخط، وقبل كل ذلك الاطلاع على العلوم المختلفة التي تشكل ثقافة ذلك العصر، كالعلوم الدينية وعلى رأسها أصول الفقه، وشؤون الخراج، وعلم الحساب، والفلسفة والمنطق والطب والكيمياء...، يقول الجاحظ في وصف كُتَّاب ديوان الرسائل : « لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيتُ البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر » [3]

وقد ساعد في ازدهار فن الكتابة أن أصحابها قد اتخذوها مطية للوصول إلى المناصب العالية، فكم من كاتب أضحى واليا على أحد الأقطار، أو وزيرا في أحد الوزارات، هذا إلى جانب كثرة الدواوين في الدولة، التي تحتاج إلى كُتَّاب، ففي العصر العباسي على سبيل المثال: كان هناك ديوان الخلافة، وديوان الجيش، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وفي هذا العصر يمكن أن نذكر أهم أعلام الكتابة الديوانية، الذي طبقت شهرتهم الآفاق، مثل : يحي البرمكي وابنه جعفر، والفضل بن سهل، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، وإبراهيم بن العباس الصولي، وابن العميد، والصاحب بن عباد ...

نموذج من الرسائل الديوانية المشرقية :

لما مات أبو جعفر المنصور (157 هـ)، خرج الربيع بن يوسف وفي يده قرطاس، فألقى أسفله على الأرض، وتناول طرفه ثم قرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين- ثم ألقى القرطاس من يده، وبكى وبكى الناس، فأخذ القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين، لا بد من أن نقرأه عليكم، فأنصتوا رحمكم الله، فسكت الناس، ثم رجع إلى القراءة- أما بعد:

فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسألُ الله ألَّا يفتنكم بعدي، ولا يلبسكم شيعا، ولا يذيق بعضكم بأس بعض يا بني هاشم، ويا أهل خراسان ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي، وإذكارهم البيعة له، وحضهم على القيام بدولته، والوفاء بعهده » [4]

نموذج من الرسائل الديوانية الأندلسية والمغربية :

من ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل يلومه فيه على هجره إياه، قائلا : «أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي

---

[1] - بهاء الدين البغدادي، التذكرة الحمدونية، ج04، مرجع سبق ذكره، ص 284.

[2] - علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، ج01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1990، ص 213.

[3] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين،ج04، مصدر سبق ذكره، ص24.

[4] - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ج08، دار التراث، بيروت، لبنان، ط02، 1387 هـ، ص 111، 112.

أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون » [1]

فردَّ عليه عبد الرحمن الداخل برسالة كلها وعيد وتهديد يقول فيها : « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك، فلعل ذلك يقمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى؛ فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرّك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا » [2]

ومن الرسائل الديوانية الأندلسية ما كتبه أبو بكر القروي لبعض الأمراء جواباً عن كتاب ورد من بعض العمال الجهال الذي أساء أدب الكلام مع الأمير، فقال : « وقفنا على كتابك الذي طال فقصر، وكبر جرمه فصغر، صدرته بنون التعظيم، وسطرته بمجدك الحديث والقديم، وخاطبتنا فيه بالألفاظ الحجَّابيَّة، التي تخاطب بها غوغاء الرعيَّة، ارجع - أصلحك الله - عن هذا الأدب، وتأدب في خطابك لذوي الرتب. » [3]

الخصائص البنائية لفن الرسالة :

إن الرسالة بما هي أثر فني تُبنى كوحدة متلاحمة الأعضاء، متناسقة الأجزاء، فالمقدمة تشير إلى مضمون أو موضوع النص بإشارات خفيفة، توحي بالغرض المقصود دون أن تقتحمه وتفصل فيه، والمضمون يأتي كتفسير لتلك الإشارات، وتأتي الخاتمة، كمحصِّلة لما سبق؛ بحيث تؤكده وتُجْمِلُهُ، وفيما يأتي تفصيل العناصر السابقة :

أ/ **بنية المقدمة :**

مقدمات الرسائل عموما تشتمل على البسملة والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والدعاء للمرسل إليه، إلا أن الاستفتاحات تختلف على حسب منزلة المرسل إليه، والغرض من الرسالة، فقد يذكر اسمه أو كنيته أو رتبته، فيقول من فلان لفلان، لكن ليست كل الرسائل تبتدئ بما قدمنا، حيث يمكن أن يدخل المرسل إلى الغرض مباشرة، وفضلا عن ذلك درج بعض الكتاب على استعمال ألفاظ وعبارات في صدور رسائلهم، يكون الغرض منها ربط الصدر بالمقاطع الأخرى من الرسالة، ومن ذلك عبارة (أما بعد)، ويشترط فيها ما يشترط في المطلع من القصيدة، من الجودة والحسن والبراعة ومراعاة الحال، لأنَّها أول ما يطرق السمع من الكلام، ويؤكد صاحب "المثل السائر" على أهمية "المطلع" في الكتابة فيقول: « أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة؛ فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب، ولهذا بابٌ يسمى : باب المبادي والافتتاحات » [4] ، وأيضا يمكن أن تبتدئ الرسائل بأبيات من الشعر لصاحب الرسالة ولغيره، فهي إرهاصٌ بالقادم وتوطئة له.

وقد حرص كُتَّاب الرسائل على مراعاة مقتضى حال من يرسلون إليهم الخطابات المختلفة، فإذا طالعنا على سبيل المثال : كتاب العقد الفريد، فسنجد أنه قد أورد مجموعة من العبارات التي تذكر المرسل إليه، وما يناسبه من مضمون الخطاب وموضوعه، منها [5] :

- **إلى الخليفة :** أكرم الله أمير المؤمنين بالظفر، وأيده بالنصر في دوام نعمته، وحاط الرعية بطول مدَّته.
- **إلى ولي العهد :** أكمل الله له الكرامة، وحاطه بالنعمة والسلامة، ومتّع به الخاصة والعامة.
- **إلى والي الشرطة :** أنصف الله بك المظلوم، وأغاث بك الملهوف، وأيّدك بالتثبت، ووفّقك للصواب.
- **إلى القاضي** : زيّن الله بفضلك الزمان، وأنطق بشكرك اللسان، وبسط يدك في اصطناع المعروف.

وهنا نشير إلى اختلاف مقدمات الرسائل الأندلسية عن المشرقية، فإذا كان المشارقة تبدأ رسائلهم في الغالب بالبسملة والتحميد والتصلية، فإن الأندلسيين في الغالب ♣ أيضا « صارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها، وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف، وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه، أو بالمنظوم، أو بالدخول في

---

[1] - شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج03، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط01، 1997، ص40.

[2] - الصفحة نفسها.

[3] - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج07، مصدر سبق ذكره، ص 365.

[4] - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج01، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان، 1420 هـ، ص 87.

[5]- ينظر : ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج04، مرجع سبق ذكره، ص 328 – 329.

♣ - قلنا في الغالب؛ لأن هناك بعض الرسائل الأندلسية التي بدأها أصحابها بمقدمات البسملة والثناء والحمد والتصلية، ومن ذلك رسالة الشوق والحنين إلى المقام المحمدي والحجرة الشريفة، ومنه رسالة ابن أبي الخصال التي يقول في بدايتها : « بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله، إلى الرؤوف الرحيم، الرسول الكريم، ذي الخلق العظيم، والحسب الصميم ... » شهاب الدين الدين المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح : سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت، ج04، دار فضالة، المحمدية، المغرب (صندوق إحياء التراث الإسلامي)، ط01، 1978، ص21.

الموضوع مباشرة، أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار، تبعا لتنوع مقامات المرسل إليهم، واستخدام الألقاب التي تتناسب، ومن يكتب إليه أميرا أو وزيرا أو صديقا » [1]

ب/ **بنية المضمون :**

ينتقل كتاب الرسائل من المقدمة إلى موضوع الرسالة أو غرضها أو متنها، وفي كثير من الأحيان، يُفصل بينهما، بصيغة ما يسمى بفصل الخطاب ((أما بعد))، وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد، وفيها مساحة كبيرة للتفصيل والشرح والتحليل، لما تمَّت الإشارة إليه في المقدمة، ومعلوم أن أغراض الرسالة تختلف من نوع إلى آخر، على حسب ما تمَّ بيانه في الرسائل الإخوانية والديوانية، والغرض يُكسب الرسالة سمات خاصة، (شكلية وأسلوبية ودلالية ووظيفية) تتعلق بحجم الرسالة من حيث الطول أو القصر، وبنوعية الجمل والاستشهادات، وبوسائل الإبلاغ....

ج/ **بنية الخاتمة :**

ويسميها البعض ((المقطع))، بوصفها آخر شيء في الرسالة، يشترط فيها ما يشترط في المقدمة، فإذا كانت الأخيرة أول ما يفد على السمع من القول، فإن الخاتمة هي آخر ما يبقى في الذهن، وفيها يجتهد الكاتب في تكثيف واختصار ما فصَّله في العرض، وهي في الغالب تتخذ أشكالا متعددة، كما قد تتألف من عناصر متنوعة، منها الدعاء حيث يخصص صاحب الرسالة خاتمتها للدعاء للمرسل إليه؛ الذي يستلزم مراعاة الأحوال وطبيعة العلاقات الكائنة بين المتراسلين وغرض الرسالة، وتتألف الخاتمة من عناصر أخرى هي: التحميد، والتصلية، والسلام، والشعر...

وهناك التذييل، الذي عادة ما يكتب فيه تاريخ الرسالة، أو اسم كاتبها.

إلا أن هذه الهيكلة ليست قاعدة عامة لكل الرسائل، فيمكن أن تخالفها، وأن تخرج عن هذا الإطار، كرسائل التهديد والوعيد، التي لا يحسن فيها السلام ولا الدعاء ومثاله رسالة هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم، التي يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافره، والجواب ما تراه لا ما تسمعه » [2]

ملاحظة:

تنبغي الإشارة إلى أن بين الصدر أو المقدمة والغرض روابط تنبغي الإشارة إليها، لأن الكاتب لا ينتقل مباشرة إلى غرضه، بل يمهد له بعبارات تنبه القارئ إلى ما سيأتي، وهو ما يعرف بـ ((**حسن التخلص**))؛ وحقيقته الانتقال بين المقدمة والغرض على وجه سهل منسجم يختلسه اختلاسا؛ بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، ويتم ذلك بواسطة أدوات لغوية تتبئ بهذا الانتقال وتمهد له، وهذا الربط بين أجزاء الرسالة هو مثله الواقع في أجزاء القصيدة.

تكتسب الرسالة خصائصها من المعطى الأسلوبي العام الذي يحكم النثر، غير أنها تنفرد بخصائص أخرى تفرضها طبيعتها؛ بوصفها جنسا أدبيا يستند إلى سمات وملامح أسلوبية تميزه عن غيره من الأجناس النثرية الأخرى في بنيتها اللفظية والتركيبية، إلا أن حديثنا عن خصائص الرسالة اللفظية والتركيبية يتعلق بنوع خاص منها؛ وهي الرسائل الفنية، أما باقي الرسائل، وخاصة تلك الرسائل التي يكون الغرض منها هو مجرد التواصل أو الإخبار، فتتضاءل فيها الخصائص الفنية أو تنعدم .

تتميز الكتابة الفنية، في العصور الإسلامية، وبخاصة بين نهاية العصر الأموي والعصر العباسي، بعدة خصائص من الناحية اللفظية نذكر منها:

1/ تخيُّر الألفاظ، والبعد بها عن الغرابة والوحشية والاستكراه، وتخير السهل والواضح، التي تقترب باللفظ من الفصاحة، مما تكلم عنه أهل البلاغة.

2/ تفاوت الرسائل المشرقية والمغربية بين الإيجاز والإطناب، ومعلوم أنها تطول أو تقصر على حسب موضوع الرسالة والغرض والمقصد منها، إلا أنها في الغالب تكون مسهبة في الرسائل الإخوانية، ومختصرة في الرسائل الديوانية.

3/ أمَّا الأسلوب فكان جزلا حينا وعذبا حينا، وكان منوعا بين الخبري والإنشائي، أما المحسنات البديعية، فكثر استخدامها، وتفنن الكتاب فيها، مثل : الازدواج والمقابلة والترادف والسجع والطباق، هذا مع وضوح العبارة، وجودة الوصف، وجمال الديباجة.

4/ الإطناب وتكرار الكلام، وذلك بتصوير المعنى الواحد بأكثر من صورة.

---

[1] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مرجع سبق ذكره، ص 315.

[2] - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ج08، دار التراث، بيروت، لبنان، ط02، 1387ه، ص 308.

5/ التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال والحكم ونحوه من عالي الكلام العربي، ما يدلنا على سعة ثقافة الكتاب المشارقة والمغاربة والأندلسيين.

أما فيما يخص الرسائل الإخوانية خاصة، فهناك بعض الخصائص اللفظية والتركيبية منها:

1/ في التعازي ؛ يعددون الألفاظ الدالة ثواب الله الذي أعده للصابرين، وما ينبغي التسليم له، والرضا بقضائه، وقد يعرضون لذم الدنيا، والتهوين من شأنها، وذكر نكباتها وأحزانها.

2/ وفي العتاب ؛ تكون الألفاظ رقيقة لبقة، وقد يبالغون فيها، ولكنها - في الغالب - لا تخدش المشاعر، ولا تقلل من شأن المعاتَب.

أما فيما يخص الرسائل الديوانية، فهناك بعض الخصائص منها :

1/ أن مفرداتها يغلب عليها الدقة والسهولة في التعبير.
2/ التقيُّد بالمصطلحات الرسمية المتداولة، والمندرجة ضمن التقاليد الكتابية المعروفة.
3/ البعد فيها عن التهويل والمبالغات، والتخييل.

4/ أنها تعدُّ وثائق تاريخية مهمة تكشف لنا كثيرا من مظاهر التنظيم السياسي والإداري والقضائي والمالي، وأدب الراعي، وأنظمة الحكم في الأقطار الإسلامية المختلفة.

ومما تميزت به الرسائل الأندلسية زيادة على ما سبق، هو كثرة استعمال الجمل المعترضة والجمل الدُّعائية في الرسائل الإخوانية؛ خاصة التي فيها تعظيما لله، أو الدعاء للمرسل إليه بالسعادة والعز وطول البقاء والتوفيق ♥ وما إلى ذلك... وهي في الغالب تكون في أغراض التعزية والتهنئة، وأيضا في رسائل الجهاد ضد الصليبيين.

وقد حفلت الرسائل الأندلسية بالتنويع بين الشعر والنثر، وذلك على حسب مقتضى ومقام المرسل إليه، وقد أكثروا من استخدام الأشعار (التي تكون من نظم صاحب الرسالة أو منقولة من غيره)، وذلك للتدليل والاحتجاج، وتأكيد المعاني، ولكن ليس كل كتَّاب الرسائل يفعل ذلك، بل المبدعون المتمرسون والحذاق منهم، وتظهر أكثر ما تظهر في أغراض المفاخرات وكثير من الرسائل الإخوانية، وكذا في الرسائل الوصفية، كالربيعيات والزهريات والثمريات والطرديات، وتكاد يخلة هذا التنويع في الرسائل الديوانية، لعدم الحاجة إليه.

وإذا أردنا أن نقايس بين فن الرسائل عند المشارقة، ومثلها عند الأندلسيين، فلا شك « أن الأندلسيين قد حاكوا المشارقة في أدب الرسائل، إلا أنَّ أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هناك جوانب ابتكار سبق الأندلسيون المشارقة إليها، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل ... كما أنَّ خصائص فنية ميَّزت رسائلهم عن رسائل المشارقة؛ حيث استطاعوا أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم، وأن يفتنوا بها بما أوتوه من موهبة فذة، وذوق جميل وأصيل، حتى لتبدوا رسائلهم، وكأنها شعر منثور لا ينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعرا » [1] إلا أنهم قد باينوا الكتابة المشرقية في بعض السمات، نذكر منها : أنهم بالغوا في وصف مظاهر الطبيعة، حتى يخرج عن الموضوع أو الغرض الذي يكتب فيه، أن عندهم اقتصادا في الكلام عن الملوك لا كما عند المشارقة الذين نلحظ في رسائلهم الديوانية نوعا من الغلو والمبالغة بل والتعظيم في الكلام عن الملوك والأمراء.

ومما يذكر في هذا الصدد أن الكثير مقدمات الكتب عند القدامى تعدُّ من بين الآثار الأدبية القيمة، بما فيها من جمال الأسلوب ورائق المعنى، مع السجع المستحسن، ويمكن أن نمثل لذلك بما كتبه الثعالبي في يتيمته عمن كتب عنهم، يقول في ذلك : « كَانَ بَنو حمدَان ملوكا وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وَسيف الدولة مَشْهُور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم، وَكَانَ رَضِي الله عَنهُ وأرضاه، وَجعل الْجنَّة مَأْوَاه، غرَّة الزَّمَان وعماد الْإِسْلَام، وَمن بِهِ سداد الثغور وسداد الْأُمُور، وَكَانَت وقائعه فِي عصاة الْعَرَب تكف بأسها وتنزع لباسها وتفل أنيابها وتذل صعابها وتكفي الرّعية سوء آدابها، وغزواته تدْرك من طاغية الرّوم الثار وتحسم شرهم المثار وتحسن فِي الْإِسْلَام الْآثَار وحضرته مقصد الْوُفُود ومطلع الْجُود وقبلة الآمال ومحط الرّحال وموسم الأدباء وحلبة الشُّعَرَاء » [2]

♥- من تلك الجمل الدُّعائية قولهم : أطال الله بقاءك، أعلى قدرك، أعز سلطانك وأيَّد ملكك ...

[1] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مرجع سبق ذكره، ص 314.

[2] - أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 37.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زيتاي